
قطار إلى روما
قصص مترجمة
ترجمة
منير عبد الأمير
المكتبة الثقافية
بيروت

قطار إلى روما

قطار إلى روما

قصص مترجمة

ترجمة
منير عبد الأمير

المكتبة الثقافية
بيروت

الطبعة الثانية
١٤٠٧ هـ ١٩٨٧ م

المصباح اليدوي

وليم سارويان

المصباح اليدوي

وليم ساروريان

المصباح اليدوي

انه لشيء رائع ان تملك مصباحاً يدوياً، والأروع منه أن تملك مسدساً (والذي طبعاً لن تستطيع الحصول عليه؛ والذي لن تريده فعلاً؛ والذي مع ذلك، من المسر دائماً ان تتصور انك تريده أكثر من أي شيء آخر في العالم).

ليس باستطاعتك أبداً أن تملك مسدساً لأنك ممكن أن تخطيء في استعماله وتقتل صديقاً بدلاً من (مستر ديفز)، مدير (مدرسة ايجرسون). ممكن أن لا تكون دقيقاً باستعمال هذا الشيء فتطلقه وتجعل أنف أحد الناس يطير. أحدهم، الذي هو لطيف، وواقف عند الركن، في قيظ الظهيرة، فيضع يده حيث (كان) أنفه موجوداً، وقلبك سيمتليء بالندم، وفمك سيحاول أن يقول، « الصدق، يا مستر ويلر، أنا لم اقصد أن اطيّر أنفك. كنت أصوب الى فرخ الصقر الطائر هناك فوق سقف البناية أنا آسف، يا مستر ويلر. أنا اعتذر).

أو ممكن أن تصرخ، محاولاً أن تطلق اطلاقة سريعة ثانية على فرخ الصقر الدائر، لكن التسديد ينحرف بسرعة، فيطير أنفك الخاص.

وأيضاً قد يحدث ذلك مع الحصان.

لا يمكن التنبؤ بذلك.

أما المصباح اليدوي فقصة أخرى

ان الاسم الحقيقي لأبن عمك (جو) هو (هوفسب).

و (هوفسب) بالأرمنية معناه (جوزيف). ومثلك، كان (جو) في الحادية

عشرة من عمره، لكنه يبعث على الضحك أكثر منك، وأيضاً أصغر منك بشهر ونصف. ويعني ذلك ــ حسنا، انك الأول. انك قبله. انك وصلت قبله بشهر ونصف الشهر.

وهكذا دخلت أنت وسألت أمه عن حاله فدمعت عيناها، وقالت: « لا أدري. إن الطبيب معه ».

انك خرجت الى الشارع، في ظلام تشرين الثاني، وبدأت تسير الى البيت، تمنيت انك تملك المسدس والحصان، اذن لكان باستطاعتك أن تقفز راكباً على الحصان وتعدو مسرعاً في الشوارع، وتسحب المسدس، وتفعل شيئاً، خفيف الحركة وطائشاً لتجعل (جو) يتحسن.

ان ذلك كله خطأ. حيث ان (جو) ليس مريضاً بالانفلونزا، واذا ما مات ــ حسناً بحق الرب، فانك ستموت مثله. قلت لنفسك وانت عائد الى البيت « اذا مات جو، فانك أيضاً ستموت ». كانت ليلة باردة صافية، وكانت أعظم الأوقات في العالم لأن تحيا فيها، وبسنين عديدة رائعة من المغامرة أمامك.

كنت منشغلاً أكثر من اللازم في أساك من أجل (جو) بحيث لم تستطع أن تتذكر كم انك تخاف الظلام، ثم تذكرت فجأة. كنت فزعاً حقاً لدقيقة، ثم انك ضغطت بابهامك على زر المصباح اليدوي، فانطلق الضوء، ولم تعد فزعاً. وهكذا ارسلت الضوء فيما حولك؛ الى الأرض؛ الى اعلى خلال اغصان الأشجار ويساراً ويميناً؛ شمالاً وجنوباً. ثم فجأة وأنت تسير أدركت ان كل شيء قد انتهى، فقد مات (جو)، وأنت تسير في الشارع وحيداً، والسنون مرّت، وأتت ليلة من تشرين الثاني مرة أخرى بعد سنين عديدة، وأنت لم تزل مريراً، وما زلت لا تستطيع أن تصدق ذلك. لقد أوقدت المصباح ووجهت الضوء الى جذع شجرة وقلت، « جو؟ ». لكن لا أحد هناك. وبعد لحظة حولت الضوء الى درجات بسطة سلم مظلمة، معتقداً ان من الممكن أن يكون جالساً هناك، وقلت، « جو؟ » لكنه ليس هناك، أيضاً.

لم يكن باستطاعتك في اليوم التالي أن تنتظر ولا تهرع الى بيت (جو) ساعة الغداء. لما دق جرس الظهيرة، قفزت خارج رحلتك، وكنت الأول في وصولك

الى الباب، وغادرت البناية أولا، وبدأت تركض الى الشارع (ل) منحدراً الى (سان بنيتو افنيو)، حتى تعبت ولم تعد تستطيع الركض بعد. قلت، « رجاء. رجاء، لا تدع جو يموت ». أخرجت المصباح اليدوي واطلقت الضوء، لكن ضوء النهار كان ساطعاً أكثر من ضوئه، وكان باستطاعتك أن ترى كل شيء، فما فائدة مصباح يدوي بعد؟. بقيت تسرع وترسل الضوء الى كل شيء، وكأنما الوقت ليلاً، وكأنما (جو) كان في آخر ليلة من حياته، وأنت كنت تبحث عنه، وبقيت مستمراً تسأل السؤال: « جو؟ ».

وأخيراً وصلت الى البيت ووقفت على الرصيف ورنوت اليه. هل كان بيتاً فيه ولد اسمه (جو)؟ هل كان بيتاً مليئاً، بالذهول والأسى اللذين غمرا الأمهات والآباء، والأجداد والجدات، وآباء أجداد (جو هاكوبيان) وامهاتهم، الذي في الحادية عشرة من عمره والذي وصلت عائلته قبل سبع عشرة سنة من (بيتلس)؟ هل كان البيت يضم الأحياء والأموات لقبيلة قد غشت في ابن لها؟

انك ذهبت الى الباب الخلفي، وبهدوء دخلت في المطبخ، ورأيت أمه، وعلمت من وجهها بأن ضوء المصباح اليدوي قد اكتشف قلب الرب في ظلمة ليلة تشرين الثاني، وفي اشراقة نهار تشرين الثاني، وعلمت ان (جو) كان حياً، وقلب الرب ينبض فيه. وعلمت بأن ذلك القلب العظيم سيستمر ينبض فيه طوال السنين التي كانت قد زمجرت في اذنيك في الليلة السابقة. كنت قد عرفت بأن كل الموتى من الجدات والأجداد كانوا يبتسمون، وانت لم تقل أي شيء. كل ما فعلته أنت هو انك رفعت نظرك الى أم (جو) وابتسمت.

قالت، « انه بخير الآن؟ سوف يغادر فراشه في أيام قلائل. عد بعد انهائك دوام المدرسة. من المحتمل أن يكون حينئذ مستيقظاً ».

قلت لها، « مؤكد. هاك هذا المصباح اليدوي لتعطيه له، عندما يستيقظ. انه يستطيع أن يطلق منه الضوء خلال الليل على الحيطان والسقف. انه اختراع في غاية اللطافة ».

الممثل

راي رسل

الممثل

راي رسل

(يعتقد المؤرخون ان المؤلف اليوناني (ثيسبس) الذي عاش في القرن السادس قبل الميلاد بأنه هو الذي أدخل الممثل (وهو رجل آخر غير رئيس الجوقة) لأول مرة على المسرح، وكذلك ادخل استعمال الأقنعة في التمثيل، وهكذا اصبح بمستطاع الممثل الواحد أن يقوم بأدوار شخوص متعددة خلال حوادث التمثيلية الواحدة مما فتح الطريق لخلق شخوص مسرحية متعددة وخلق تأثيرات درامية نتج عنها تعقيد في التأليف المسرحي وتطويره. وقد استوحى كاتب القصة (راي رسل)اقصوصته (الممثل) من تلك الحقبة التاريخية حوالي سنة ٥٦٠ قبل الميلاد حيث كان (ثيسبس) يعمل في أثينا التي كان مسرحها يتبوأ المكان الأعلى بين الولايات اليونانية، وقد اشتهر هذا الكاتب بقصصه المثيرة في طرافتها ومرحها المحرق والميت أحياناً وبقصص الهلع والرعب، وقصصه أحياناً تشل القارىء من كثرة الأثارة والتشويق، وقد صدرت له مجموعة قصص تحت عنوان (ساردونيكس وقصص اخرى) والتي اقتبس منها المؤلف سيناريو فيلم بنفس الأسم (السيد ساردونيكس) واخرجه للسينما منافس الفريد هتشكوك في افلام الشك والتوقع (ويليام كاسل) وعرض في بغداد في سينما السندباد قبل سنين).

((المترجم))

الممثل

عند مؤخرة خشبة المسرح، كان المدير يخطو رواحاً ومجيئاً بدون استقرار...

قال:

— (انها لن تنجح)

وقال المخرج:

— (انها ستنجح)

قال المدير:

— (لم يعملها أحد من قبل).

— (انها المرة الخامسة التي تقول فيها ذلك).

— (وسأقولها للمرة السادسة... انها لم تعمل من قبل ابداً).

قال المخرج:

— (جيد، وانه لسبب وجيه لأن تعمل، الست معي في ذلك؟)

فرك المدير رأسه الأصلع.

اضطر نفسه أن يتكلم ببطء وبنبرة صوت لطيفة هادئة:

(هل يمكن أن اذكرك، اننا في هذه المهنة لغرض واحد لا غير؟ ان نملأ المسرح).

قال المخرج: (هذا سيملأ المسرح. انهم سيحبونه)

— (انهم سيكرهونه)

— (الا تثق بي؟)

شعر المدير ان غيمة المزاج العاصف آتية. ان مخرجاً غاضباً ليس في صالحه كمدير.

فقال بمغالاة: (يا صديقي العزيز) ووضع ذراعاً حول كتفي الرجل الآخر (اثق فيك؟ من أين لي أن أجد مخرجاً مثلك، حتى لو فتشت المدينة كلها؟ البلد بكامله؟ يا صديقي، صدقني، إني « أثق » فيك... انك فنان، أنت محترف. انت محبوب شعبياً. انك تعرف ما يريده الجمهور).

ــ (اشكرك).

ــ (وذلك ما اعرفه أنا أيضاً، لذلك صرت مديراً).

ــ (آه).

وضحك المدير ضحكة خافتة:

(رأيت مسرحيات تبدأ وتنتهي وجمهوراً يأتي ويذهب... ورأيت مخرجين يأتون ويروحون).

قال المخرج بحدة وعيناه تضيقان: (أهذا تهديد؟)

قال المدير تظاهراً بالغباء:

(تهديد؟ أأنا اهدد؟ أأنا اهدد فناناً عظيماً وصديقاً شخصياً لي وضيفاً في بيتي قد تعشى معي مرات عديدة يتعذر عليّ ذكر عددها؟ اهددك أنت؟) وفتح ذراعيه على سعتهما ودور عينيه باتجاه السماء، كأنه يطلب مساعدة الهية. ثم قال بلطف: (اصغي الي يا ولدي.

الجمهور « يعتقد » فقط بأنه يريد شيئاً ما جديداً. ان ما يريده حقاً هو نفس الشيء القديم مع شيء قليل من الالتواء هنا وهناك).

قال المخرج: (ذلك هو كل ما سأعطيه له. التواء واحد صغير. النص سيبقى نفسه تماماً. أنا لا أنوي تغيير كلمة واحدة).

لم يفعل المدير شيئاً غير التنهد. لكنه فعل ذلك بفصاحة أو ببلاغة. ثم قال: (انك قررت ان تفعل هذا الشيء؟ انك مصمم على تدميري؟).

ربت المخرج على ذراع الرجل الأكبر منه سناً مطمئناً قال:

(انهم سيحبون ذلك. سوف ترى).
أخذ المدير يئن ببؤس قائلاً:

(المخرج ينطق بسطور. أما أن يتجاوب « رجل مفرد » مع االجوقة « المجموعة »! وأن يتحادث معها أخذاً وعطاء كما في محادثة في الحياة الواقعية! فذلك يجعلني « بليداً ضاحكاً » يضحكون عليه!).

قال المخرج: (كف عن القلق. هذه التجربة ممكن أن تبدأ لنا بحرفة جديدة: المتجاوب أو المتكلم، أو... الممثل. آه.. يعجبني ذلك)، ثم غمز (ثيسبس) للمدير وخطا من مكانه داخلاً تحت ضوء الشمس الساطع في المسرح الأثيني.

سخرية برينة

بيلا كادور.

سخرية برينة

بيللا كادور

لقد حدث لي ما يلي. دخلت في مخزن لشراء ربطة فتبادلت بعض الكلمات غير السارة مع البائع. طلبت سجل الشكاوي، وبعد أن وجده البائع رماه في وجهي. وجدت الحكاية مضحكة ونموذجية بما فيه الكفاية لتستحق أن ادونها على الورق. ومن الطبيعي ــ لأجل خلق تأثير فني رفيع عليّ أن أغيّر بعض الوقائع ــ وبالروح المرحة نفسها اشتريت زوجاً من حمالات البنطلون بدلاً من ربطة العنق، ولكي أجعل الحكاية بهيجة جعلت بدلاً من البائع القاسي بائعة مهولة ذات لهجة قروية ووجه ملاك. لكن حكايتي التي كتبتها أثارت خطيبتي، فقطعت علاقتها بي قائلة انها ترفض ان تخرج مع شخص تُرمى في وجهه سجلات الشكاوي. وأخيراً في النهاية شنقت نفسي بحمالتي البنطلون لكنهما انكسرتا. نعم، انهما مرفوضتان من أي صانع أصيل.

كان المحرر ممسكاً بكوبٍ قهوة في يد وسيجارة في أخرى، وأخذ يقرأ حكايتي الصغيرة باستياء، ثم رفَع نظره، وقد أرهقه المرح، قال:

ــ عظيم. انها كوميديا خالصة، لكن لن استطيع نشرها.

ــ لماذا لا؟

ــ لأنها ليست متينة. نصف حقيقية، ونصف مختلفة. اذا نشرناها، فسنحصل على اعتراضات من الجهات التالية: المعامل والمخازن التي تبيع حمالات البنطلون، والمسؤولون الذين أجازوا صناعتها. المنظمات النسائية أيضاً ستحتج لأن شخصية البائع امرأة بينما شخصية الزبون رجل، وكذلك كل منظمات

الشباب، لأن كليهما من الشباب. وأكثر من ذلك، سوف يصلنا صوت العرائس، وفي الواقع، حتى دافنوا الموتى سيرفعون اصواتهم بالاحتجاج. وبعد كل شيء انك قد جعلت من محاولة انتحار وكأنها شيء علينا أن نكون سعداء به. وممكن أن اضيف باننا سنستلم شكاوي عديدة من دائرة اولئك الذين يتكلمون بسذاجة وضيق افق. هذا اذا لم نذكر أيضاً اولئك الذين سيكتشفون في الحادثة مقارنة مقحمة بين القرية والمدينة.

ــ اذن، ما المفروض أن افعل؟

ــ أقترح ان تتمسك بالواقع. اكتب القصة عن الربطة والرجل كما حدثت تماماً. ذهبت الى البيت، كتبتها وعدت بها. قرأها، وقال:

ــ هذه النسخة تصلح للنشر، لكنها مملة كالجحيم. ليس فيها أي أثر من المرح. اعطها الى جريدة يومية.

ــ لا، لا ثم لا! (قلت ذلك وقد استقر نظري على وجه المحرر الذي غمره المرح) سأجعلها مضحكة، حتى لو أدى ذلك الى قتلي! هل من اقتراحات؟

ــ انها مسألة صعبة (قال ذلك متسلياً ثم سحب نفساً من سيجارته وشرب جرعة من قهوته) اقترح عليك ان تنسى مسألة الواقعية. ادخل في عالم الخيال، وانت باقٍ على أرض الواقع. لكن لا تستخدم الرموز. تذكر (سالتيكوف ــ سيشدرين)...

وخلال ثلاثة أيام بأكملها، دخلت عالم الخيال ولكن دون أن أغادر الأرض. لقد اندهشت ــ انا نفسي ــ عندما لاحظت ان ما كتبته هي حكاية خرافية معقدة عن الحيوان بسداسية التفاعيل. كانت حول شبوط يدخل في تعاونية عالم الديدان، حيث يقوم بمحادثة ذكية وفيرة مع ابن عرس وهو يصنع جبنة (بال بسترا) اللذيذة الطعم لكن ذات الرائحة غير المحببة.

ابدى المحرر انزعاجه الواضح عندما ظهرت في مكتبه مرة اخرى. وبفتور همة نفض باصبعه رماد سيجارته فسقط في كوب القهوة، ثم تناول حبة (فاليوم) المهدئة للأعصاب، وقال:

ـــ لدينا ٤٠٠٠ حكاية عن الحيوان، وقد حفظت في الأضابير حسب الحروف الأبجدية للحيوانات. من البلثيون الأبيض والى الحمر الوحشية. فاضافة حكايتك وحيوانك ستسبب لنا بعض المتاعب. لكن مشكلتك الحقيقية هي أن حكايتك الصغيرة المرحة ما زالت تثير مسائل حساسة نوعاً ما. اني استطيع الآن أن اسمع احتجاجات صانعي الجبن، هذا اذا لم نذكر الصيادين بالسنارة. انك جعلت الشبوط يبدو غبياً، كما ان الناس سيفقدون شهيتهم لأكل السمك وذلك سوف يضر باقتصاد القطر.

شعرت بنوام لمدة اسبوع، لكن ذات ليلة، استيقظت كأنما بسحر، وكتبت حكايتي المرحة في أقل من ساعة. لقد جعلت الحادثة تقع في كوكب المريخ. اشخاص من المريخ ذووا أجنحة، ومخلوقات مدهشة اخرى احتلت حكايتي، حيث لم يعد لما حدث في المخزن، والذكرى الحزينة لشرائي ربطة أكثر من صدى ضئيل.

ظهرت حكايتي الصغيرة في الأسبوع الماضي، وحتى اليوم لم اسمع باحتجاجات حول تخريبي للعلاقات مع الكواكب. لكني سأنتظر، متلهفاً قلقاً، للهزة الأرضية القادمة والتي من المرجّح أن تحتسب نتيجة لخطئي.!

حب

جسن ستيوارت



حب

جسن ستيوارت

البارحة، عندما زحفت الشمس الساطعة على حقل الذرة الأصفر، كنا أنا وأبي ــ نمشي على حافة الأرض التي حرثت حديثاً وكنا نبغي ان نقيم لها سياجاً، وكان البقر يخرج من بين أشجار البلوط التى على الرابية وينحدر راكضاً فوق الذرة الصفراء الجديد لالتهام عرانيصها وتكسير سيقانها.

مشى أبي في حقل الذرة وأمامه كلبنا الصغير (بوب). وسمعنا صفيراً يصدر من بين الأشجار. قال أبي:

ــ (تسو ... اقتله يا بوب).

والتقط ساقا يابسة من سيقان الذرة كان قد خلعه سنجاب طمعاً في الحبات الحلوة التي تجتمع على الجذور. كان هذا الربيع جافاً وبقيت الذرة ملقاة على الأرض ولم تتلف. وكانت السناجيب تحب الذرة لذا فقد كانت تقتلع صفوفاً طويلة منها، وتأكل حباتها الحلوة مما جعل تلك النباتات تموت، وكان علينا أن نزرعها ثانية.

كان باستطاعتي أن أرى أبي وقد استمر على حث (بوب) لمهاجمة تلك السناجيب فكان هذا فوق صفوف الذرة وقد ابتدأ يركض خلف سنجاب. وبدأت أنا أيضاً اركض باتجاه فسحة حيث كان (بوب) يقفز وينبح والتراب يتطاير على شكل ذرات صغيرة وراء اقدامنا مكوناً سحابة من الغبار خلفنا. وصاح أبي:

ــ (انه ثعبان ضخم. اقتله يا بوب... اقتله يا بوب).

كان (بوب) يقفز ويزمجر على الثعبان ليثيره. ان (بوب) قد قتل ثمانية وعشرين ثعباناً ساماً في هذا الربيع. انه يعرف كيف يقتل الثعابين. انه لا يتهور عند قيامه بذلك وانما يتأنى ويتقن المهمة. قلت:

ــ (دعنا لا نقتل هذا الثعبان. فالثعابين السوداء لا تسبب أذى، وانما تقتل الثعابين السامة، وتمسك بجرذان أكثر مما تفعله قطة. كان باستطاعتي أن الاحظ الثعبان غير راغب في مقاتلة الكلب وانما كان يرغب في ان ينجو بنفسه. لكن (بوب) كان قد قطع عليه خط الرجعة.

لقد أثار عجبي رؤيتي للثعبان يزحف، تجاه كتلة من التراب الأسود على سفح الرابية، وتساءلت لماذا ترك أشجار البلوط والشجيرات الخضراء التي على الرابية.

نظرت الى الثعبان وهو يرفع رأسه للرد على قفزات (بوب) وقلت لأبي:
ــ (انه ليس ثعباناً. انها حية. انظر الى البياض الناصع في رقبتها).
فعلق أبي قائلاً:
ــ (ان الثعابين هي اعدائي. أنا اكرهها. اقتله يا بوب. اذهب الى هناك واقتله وكفاك لعباً).

أطاعه (بوب). لقد كرهت رؤية الكلب وهو يقبض على الحية من عنقها عند البقعة البيضاء. كان جسمها الطويل يلمع في ضوء الشمس بصورة أخاذة، وحركه (بوب) كما يحرك السوط في الهواء، وتدفق الدم غزيراً من عنقها ذي الانحناءة اللطيفة، وتناثر شيء ما عند ساقي.

كان (بوب) قد رمى الحية جانباً، ونظرت لأعرف ما أصاب ساقي فوجدت انها البيوض التي انطلقت من جسم الحية.

ان الحية كانت ذاهبة الى تل ترابي لتضع بيوضها هناك حيث تدفئها الشمس وتجعلها تفقس. وقبض (بوب) ثانية على جسمها الملقى على الأرض حيث كان الدم الأحمر يتدفق على تل التراب الرمادي. كان جسمها لا يزال يرتجف بألم كما يرتجف عشب أخضر فوق نار حامية، وأخذ بوب يحركها في الهواء بقسوة وخبث عدة مرات ... وفرقع جسمها المتراخي في الهواء، ورماه ثانية

على الأرض. فتحرك كورقة في مهب ريح كسولة، ثم همد الجسم الممزق، وصبغ الدم باللون الأحمر كتل التراب الرمادية المحيطة بالحية.

صاح أبي:

ـــ (انظر الى البيوض . ألا تراها؟).

كانت سبعة وثلاثين بيضة. التقطت واحدة منها ووضعتها في كفي واغلقت عليها.

كانت الحياة تدب في هذه البيضة قبل دقيقة، والآن اصبحت بذرة غير ناضجة لن تفقس ابداً، ولن تدفئها امنا الشمس.

كانت البيضة التي وضعتها في كفي بحجم عصفور، وقشرتها رقيقة وخشنة، وكان البياض ذو التركيب الهلامي يظهر بوضوح تحت قشرتها.

قلت:

ـــ (حسناً يا بوب ـــ اعتقد انك ترى الآن لماذا لم تستطع الحية القتال. إنها الحياة، الضعيف تحت رحمة القوي، تماماً كما يحدث بين البشر. الكلاب تقتل الثعابين، والثعابين تقتل الطيور، والطيور تقتل الفراشات، والانسان يهاجم الكل بل انه يقتل ليلهو...).

كان بوب يلهث والزبد يسيل من شدقيه، ولسانه خارج فمه. كان متعباً وساخناً تحت شعره الكثيف وكان لسانه على وشك أن يلامس القاذورات اليابسة...

لقد مشينا باتجاه البيت، ولم ينبس أحدنا ـــ لا أنا ولا أبي ـــ بكلمة، وبقيت افكر في الحية الميتة بينما أخذت الشمس بالاختفاء خلف اشجار البلوط، وصاحت حدأة. انه لوقت متأخر لتغني فيه حدأة. وغيوم المساء الحمراء طافت فوق أشجار الصنوبر التي في اعلى الرابية.

وقف أبي قرب الممر وكان شعره الأسود قد تحرك بفعل الريح، ووجهه قد صار أحمر... بتأثير رياح اليوم الزرقاء وعيناه ترنوان الى الشمس الغاربة. (وأبي يكره الحيات). هكذا كنت افكر، ثم فكرت في النساء الحوامل حينما

تعرفن انهن ستلدن تستمتن في الدفاع عن اطفالهن لانقاذهم، وفكرت مرة اخرى في الحية، ولكني فكرت أخيراً ان من السخف ان ادع مثل هذه الأفكار تسيطر علي...

وفي هذا الصباح استيقظنا ــ أنا وأبي ــ مع استيقاظ الديكة. إن ابي يقول ان على الانسان أن يستيقظ مع الديكة ليقوم بعمله اليومي. وأخذت الفأس والمسحاة وعمود المقياس والمر، وبدأنا باتجاه الرابية، ولم نأخذ (بوب) معنا.

كان الندى يغطي الذرة، أبي خلفي والمسحاة على كتفه، بينما مشيت أنا في المقدمة والريح تداعبني. انها ريح صباح منعش. من ذلك النوع التي تجعل الانسان يشعر ان باستطاعته ان يقلب التل رأساً على عقب.

ومشيت الى حيث حقول الذرة التي كنا قد جئنا اليها عصر البارحة. نظرت أمامي فرأيت شيئاً... رأيته يتحرك. انه يتحرك كحبل اسود هائل... كسلك...

قلت لأبي:

ــ (قف! هذا هو الثعبان)

فتقدم أبي خطوة واحدة الى جانبي ووقف وعيناه جاحظتان، وقال:

ــ (ماذا تعرف عن هذا؟)

فأجبت:

ــ (ها انت ترى الثعبان الآن. انظر اليه جيداً! انه يضطجع بجانب رفيقته الميتة. انه جاءها وربما كان في طريقه اليها البارحة وقد قادها الى حتفها...)

لقد جاءها في الليل تحت سقف من النجوم، والقمر يلقي باشعته على العشب الأخضر. انه وجد حبيبته، ولكنها كانت ميتة.

رفع الثعبان رأسه، وتبعنا حينما درنا حول الحية الميتة، كان بامكانه أن يقاتلنا حتى الموت. كان بامكانه أن يقاتل (بوب) حتى الموت.

قال أبي:

ــ (خذ عصا وارمي به فوق الرابية، حتى لا يجده بوب ــ هل رأيت أبداً

شيئاً مثل هذا؟ لقد سمعت ان الثعابين تملك عواطف، لكن هذه هي المرة الأولى التي ارى فيها شيئاً من ذلك).

أخذت عصا، ورميت بالثعبان على الضفة... حيث بوادر الذرة الندية...



جدي

جف راكَهام.

جدي

جف راكهام

ما أن بلغت السابعة من عمري حتى ذهبت الى حقل جدي وجدتي في (ميسوري) لأعيش معهما. اعتقد ان جدي في ذلك الوقت لم يكن عجوزاً حقاً، لكنه بدا لي رجلاً عجوزاً بصورة فظيعة، لم يكن هناك أبداً رجلاً أكثر منه تجاعيداً في الوجه. لم تكن تجاعيد أسى أو ألم مبرّح وانما تجاعيد سعادة. انها قد حفرت عميقة في خديه وحول عينيه ومن قاعدة اذنية نازله الى حنجرته ورقبته. كان دوماً يحتفظ على ذقنه بلحية قصيرة الشعر لم تحلق منذ بضع أيام.

كان يقوم بفلاحة حوالي ستين أكرة تقريباً مستعيناً بفرسيه، ولم يكن ذلك لكونه عاملاً كادحاً ولكن لأن جدتي كانت لها هذه الصفة. احببت تكلما الفرسين. كنت اراقبه وهو يجمعهما ويجهزهما في الصباح، واذهب معه للحقل واراقبهما طوال النهار. كانتا جميلتين بالنسبة لي، وأكبرهما حجماً كانت رمادية وسوداء واسمها (مود) والأخرى (بيللي) سوداء أو سوداء تميل الى اللون القهوائي. لم يكن جدي أبداً ليسمح بالاقتراب منهما قرباً يسمح لي بلمسهما لأنه يقول: انهما ليستا معتادتين على الأطفال. لكني كنت أرغب في ركوب احداهما أكثر من أي شيء في العالم. لم يكن اهتمامي منصباً بصورة خاصة على احداهما،ولو أني اعتقد في سري بأني أود (مود) أكثر لأنها قامتها اطول من (بيللي) بحوالي كف واحد، وشعر عنقها الخشن الطويل يتدلى كثيراً على جبينها، وكان على جدي ان يدفع بعضه تحت الطوق لكي تستطيع أن ترى.

كنت اسأله كل صباح فيما اذا كان بمقدوري أن اركبهما، وأجابته دائماً: (لا، لم يحن الأوان بعد).

وفي أحد الأيام وكان الربيع قريباً من نهايته والحرث قد انتهى تقريباً ذهبت معه الى الحقل ولعبت حول السور وقصدت الجدول، لكن أجيراً صار الجو حاراً أكثر مما ينبغي، فجلست في الفيء الذي كونته نباتات شائكة وراقبته هو والفرسين.

كنت قد جلست ورجلاي تحيطان بالجرة من الخارج، والتي احتوت على ماء بارد وظهري مسند الى قشرة النباتات. كنت أشعر بالحرارة كثيفة وثقيلة حتى في الفيء. كانت الشمس حارقة، جعلت أوراق الأشجار في الغابة عند الجانب الآخر من الحقل تومض وتلمع...

كان جدي لم يزل مرتدياً زوجين من بدلة عمل (بنطال متصل بقميص) مع قميص صوفي ثقيل. كان قد ربط العنان حول عنقه وأخفض قبعته المكسورة المصنوعة من القش حتى أذنيه.

كانت يداه المتعقدتان العظيمتان تمسكان بمقبضي المحراث، ويرفع هو نفسه في الهواء ثم يلقي بثقله على المحراث. عندما جعل الفرسين تتحركان صاح: (هي — يا!) ولطم ظهريهما بالعنان، و (جي — آ ذر) انه يصدر كل أنواع الضوضاء وبصوت عال بينما الفرسان في طريقهما واثبتان وهو وراءهما. كان بامكاني أن أسمع لعنانه حتى عندما يغيب عن نظري بمشية متثاقلة في الجانب الآخر من التل.

كانت نحلتان عاملتان قد استمرتا تطنان حوالي، وأنا قد ضربتهما بعنف وأخيراً قتلت احداهما ثم مسحت عني دمها الأصفر.

ظهر الفرسان مرة اخرى في الجانب الآخر من التل، ورأساهما العظيمان الخشنا الشعر يقفزان الى الأعلى والأسفل وخلفهما قمة القربة، انهما قد غاصا في منخفض آخر ولم يعد باستطاعتي أن ارى منهما شيئاً سوى أعلى رأسيهما بآذانهما المترجرجة وقبعة جدي وهي تتمايل، ثم ان رأسيهما برزا فجأة صاعدين

وكان جدي وراءهما مسيطراً عليهما. صاح: (فليختم برصاص اسود الرحم الذي جئت منه يا مود. هي — يا! هي يا!) وتلعثم ولعن: (تحركي الى هناك يا بيللي).

اعتقد انه لم يكن غاضباً فعلاً، انه يريد أن يقوم بضوضاء ليس الا، أو ممكن انه بذلك يجعل نفسه يشعر بأنه ندّ لجدتي. انه يدور ويدور حول الحقل لاعناً وصائحاً، وطوال الوقت أكون أنا جالساً لا غير وأحلم بفرصة لركوب الفرسين.

اوقفهما فيما بعد صباحاً، وسحب قبعته بعنف، وأخرج العنان من حول عنقه، وعقده حول مقبض المحراث لقد جاء سائراً بخطوات واسعة باتجاهي عبر التربة السوداء ماسحاً العرق من شريطة قبعته. كان العرق قد جعل القميص فيما بين كتفيه يبدو غامقاً.

قفزت وأمسكت بالجرة فابتسم لي وهو مرح راقص، وكان ساخناً وملطخاً بالوحل.

سأل ببطء أهل الجنوب: (عمل شاق، ها؟)

قلت: (نعم) وراقبته وهو يضع الجرة الرطبة على جبينه للحظة. ثم أزاح السدادة بابهامه، وبحركة من ذراعه ضربها ضربة خفيفة لتستقر على مرفقه، والماء قد أخذ يتدفق ويقرقر وهو يشرب. لقد انهى الشرب وأعادها لى لأمسك بها. تساقط الماء على لحيته القصيرة التي في ذقنه...

امسكت بالجرة بكلتا يدي وتركت الماء البارد يمسح كُل جوانب فمي وراقبته وهو يبتسم لي. قلت وأنا اعيد له الجرة: (هل أستطيع أن اركب الفرسين اليوم؟) لقد حاولت أن يكون قولي بصورة عفوية حقاً وكما يفعل بالغوا سن الرشد.

لقد بدأ يبتسم، لكنه قطب حاجبيه عندما أعاد السدادة الى الجرة وسأل: (اتعتقد بأنك تستطيع الثبات على ظهر الفرس عند الركوب؟).

قلت وأنا ممسك بأنفاسي وأنا في تمنٍ: (أوه، مؤكد).
تكلم بتشدق: (حسناً) ثم مسح وجهه بردن قميصه توسلت: (رجاء!).
قال: (لكنك لم تزل صغيراً جداً).

قلت وأنا اشد قامتي قليلاً: (ان طول قامتي حوالي ثلاثة أقدام ونصف).
دفع يديه بعنف في الجيبين الخلفيين لبدلة عمله، وقال: (بشرط واحد).
قلت وأنا مستثار وشديد الفزع: (حسناً).
قال: (على أن لا تخبر جدتك) وغمز.

وانطلقت راكضاً عبر الوحل. لما صرت قريباً من الفرسين بديا أكبر حجماً وأكبر. لم احلم ابداً بانهما بذلك الحجم الكبير. توقفت على بعد ثلاثة أقدام تقريباً وحدقت. انهما مرتفعتان عن الأرض بحيث اني استطيع أن أمر من تحتهما بمجرد ان اغطس رأسي قليلا. لقد ناضلتا وتنهدتا واخرجتا رغوة وكانت رائحتهما كالسماد. لقد غطت الرغوة البيضاء الفرس (مود) وكان شعرها خشناً ومتساقطاً. وما أن لوت شفتيها وأظهرت اسنانها الصفراء المائلة الى الخضرة حتى نهشت بها العنان. جفلت أنا وأمسك بي جدي.

موجت جلدها وحمحمت وشخرت ثانية. تعلقت بيدي جدي، لم أكن واثقاً باني راغب في ركوبها.

سأل: (حاضر؟).
ــ (لا اعتقد باني سأركبها اليوم).

قلت ذلك محاولا أن أكون هادئاً. ممكن انه لم يسمعني لأنه أمسك بخصري ورفعني في الهواء. لقد قبضت على يديه وصحت: (لا أريد يا جدي، لا أريد!).

قال بفظاظة: (كلام فارغ) وبدأ بوضعي على الفرس. رفعت قدمي في الهواء وأنا أصرخ.

تلويت وارتعشت رعشة عنيفة وقلت: (لا، لا، لا، لا، وبدأت بالبكاء.
قال بتشدق: (انك اردت ذلك. لذلك ستفعله).
لقد اجلسني على الفرس، وكان بامكاني أن أشعر بالرغوة الرطبة من خلال مقعد بنطالي.

قال: (والآن، تمسك بسمطي اللجام) ووضع يدي حول الطوق المعدني الحار.

كان العرق الساخن ذو المذاق المر قد جعل مؤخرة الطوق غامقة. كنت مرعوباً، وأنا ابكي وأصرخ، و (مود) قد هزت رأسها، فصرخت بصوت أعلى مما سبق. كنت أشعر بشعرها مشدوداً وكأنه من معدن، ومبللاً جداً كأنما بلعاب سائل، وكان قد التصق بذراعي ويدي. تعلقت متوتراً وأغمضت عيني الاثنتين.

وصرخت: (أنا لا أريد يا جدي، لا أريد).
سمعته يسير الى المحراث ويختطف العنان.
قال: (هي — يا!)

عرفت بأني سوف أموت، وضغطت بركبتي على الفرس وحفرت باصابعي الطوق. انطلقت الفرس فارتفعت واثباً في الهواء. بدأت اصرخ بصوت عال وانزلقت الى أحد الجانبين، وامسكت بقوة وأنا ألهث. ما كان باستطاعتي أن اتنفس، ولا أن اصرخ ولا أن أبكي، وأردت أمي لأن بامكانها انقاذي. ثم توقفت الفرس وشعرت بيدي جدي الثخينتين الكبيرتين حول خصري. لقد رفعني بعيداً عن الفرس، لكني كنت مرعوباً الى احد اني لم استطع ان اتركها، وكنت امسك بها بكل قوتي. نترني فجأة وسحبني بعنف. ثم تشدق قائلاً: (حسناً فلتحل لعنة الرب، اتركها) وهكذا تركت الامساك بالفرس.

لقد أوقفني في الوحل وركع، وصار مواجهاً لي، وأنا فتحت عيني. وشهقت. كان جسمي بأكمله يرتجف ويرتعد من الصدمة. وكلما حاولت ان لا أبكي زادت دموعي المتساقطة على وجهي. نظرت الى وجهه الكبير المتجعد فرأيت اللحية القصيرة الشعر التي على ذقنه وفي اخدود التجاعيد. كان الشعر الأسود الكثيف قد التصق وغطى اذنيه، وشفتاه كانتا تبتسمان قليلاً، وحينئذ احببت ذلك الرجل أكثر من أي شخص في العالم. كان أبي وامي وجدي... ولا يستطيع أحد أبداً ان يقنعني بغير ذلك. حاولت ان اوقف بكائي بينما كانت عيناه تنظران الي بصورة عميقة.

قال بحزم، لكن بعطف: (والآن، اصغ الي. لقد تعلمت اليوم شيئاً قد لا يتعلمه الكثير من الناس) ومرّر اصبعه الخشن عبر خدّي ومسح الدمع جانباً (لقد

اكتشفت ان هناك أشياء في الحياة تعتقد الناس بانها تريدها، ولكنها عندما تحصل عليها، لا تريدها بتاتاً).

ارتعشت وارغمت نفسي على عدم الكلام ونظرت اليه. لقد وقف، وعاد بي باتجاه النباتات الشائكة وصفعني على المؤخرة، وقال: (والآن انصرف).

سرت متعثراً بالوحل الطري الأسود وأنا ما زلت ألهث محاولاً ان اوقف بكائي. سمعته يصيح: (هي — يا!) ويلطم بالعنان الجزء الأدنى من ظهر الفرس. التفت ونظرت اليه ومسحت عيني. كان المحراث الفضي يحفر في قشرة الأرض الرمادية ويقلب التربة السوداء.

وصاح بالفرس: (انت ايتها العجوز الثرثارة ذات الصرير، انك كبغل أسود اللسان!. ادخلي هناك).

مشيت عائداً الى النباتات الشائكة وجلست لبرهة في الفيء وأنا افكر...

أم

ليللي برومت.

أم

ليللي برومت

امرأتان تسيران خلال ضباب رقيق يغش شهر تشرين الثاني. انهما غريبتان، لا تتبادلان أية كلمة، لكنهما تتشاركان في طريق واحد.

طريق رمادي، مغلف بضباب رمادي.

ليست هناك سوى اشكال دارجة قليلة تبدو حدودها الخارجية، هياكل طواحين هواء بدون اجنحة، مداخن من طابوق أحمر لمزرعة حكومية ما وراء الزيزفون، اوراق ثمر التوت غامقة اللون ومشعة. رقعة بيضاء هي فراخ تهرش جلدها في حقول خريفية، ورقة شجر موحشة ترتعش في أعلى طريق جانبي بين أشجار البتولا على طول حافة مرعى. صخور (جلمود) مستلقية بصبر، بأبدية.

امرأتان متقدمتان في السن تسيران، انهما لا تتحدثان، كلتاهما غير ضجرة. حولهما أرض وطنهما، مألوفة وعزيزة، مع ذلك جديدة أبداً ــ فلن يستطيع الانسان أن يكون ضجراً!

عشب السنة الماضية الأصفر، خضرة شعير الخريف الرقيقة، وقطعة سوداء من ارض محروثة كأنها بساط قد حاكته امرأة قروية استونية.

إحدى الامرأتين تحذر الاخرى.

ــ (انتبهي، حصان)

بحركة واحدة تخطوان الى جانب. يظهر ببطء حصان مع عربة فوق انحناءة في الطريق. رجل بلحية قصيرة يلتفت الى الامرأتين، ومهر يهف ذيله. وبعد لحظة يصبح كل شيء غير واضح، ويتوارى تدريجياً كأنما في حلم.

الطريق الرمادي، الضباب الرمادي.

نباتات لا تصل الى الأرتفاع الاعتيادي تميل الى هذه الجهة وتلك. هيكل طاحونة هواء اخرى بدون اجنحة، وهناك على مبعدة، في وسط حقل صف متزو من الحور الرجراجة الرمادية الغامقة.

تقول احدى الأمرأتين:
— (الكل يبدو متشابهاً، بصورة ما)
توافق الأخرى:
— (صحيح، انه كذلك).

ضباب رقيق يجعل كل شيء رمادياً ــ الأحجار، واسيجة المزارع والعصافير البط يرشش في قناة للري، غراب ابقع طويل الذيل يطير منخفضاً فوق الطريق، خراف تقف بدونما أية حركة في حظيرة صغيرة.

من بعيد رابية لا اسم لها. عليها ترتفع مسلة متوهجة بلون احمر، حتى في الضباب الرقيق. قبر جندي مجهول.

دون أن تتبادلا اية كلمة، احدى الامرأتين تترك الطريق وتبتعد. انها تتوقف، ثم تحكم عقلها، ترفع حافة سترتها، وتقفز عابرة قناة الري انها تقف لحظة أمام المسلّة ثم تركع.

تبقى الأم وقتاً طويلاً على هذا الوضع، ولما لم يبق لديها مزيد من الدموع تنهض وتعود الى الطريق، حيث تنتظرها مرافقتها.

انهما قد قطعتا نصف الطريق معاً، وبدتا وكأنهما قد قضتا نصف عمريهما. كلتاهما تشعر بأن رابطة قد تطورت بينهما.

الطريق الرمادي الطويل مرة اخرى.

أخيراً تسأل التي بقيت في الانتظار:

— (ابنك؟)

تومىء الأخرى برأسها بالايجاب.

قد يشاركك شخص طيب آخر كسوة من الخبز ساعة حاجتك اليه، لكن حزن أم لا يمكن اقتسامه.

هل ان القبر الذي هناك على الرابية هو لأبنها حقاً؟

تقول الأم:

— (ابني استشهد قرب « لوكي »)

خلال ضباب خفيف متراكم مخيم ممكن أن يقدس قرص الشمس الذهبي. امرأتان تسيران على الطريق.

في بلاد اخرى

لارنست همنغواي

في بلاد اخرى

لارنست همنغواي

كانت الحرب موجودة هناك دائماً، رغم اننا لم نعد نشترك فيها. كان الموسم بارداً في ميلانو والظلام يأتي مبكراً جداً. ثم تبدأ الأضواء الكهربائية وتبدو مبهجة من خلال النوافذ وهي تنير الشارع كله. كانت هناك كثير من اللعب معلقة خارج الدكاكين، ونتف الثلج الصغيرة تغطي فراء الثعالب والريح تحرك ذيولها. الظباء معلقة على استقامتها ثقيلة وفارغة، والطيور الصغيرة تتحرك في الريح والريح توقف ريشها. كان موسماً بارداً والريح تأتي هابطة من الجبال. وعند المساء من كل يوم نكون جميعاً في المستشفى، وهناك طرق مختلفة لاختراق المدينة خلال العتمة للوصول طريقان منها بمحاذاة القنوات، ولكنهما طويلان. وعلى أي حال عليك في كل مرة أن تعبر قنالاً بواسطة جسر حتى تدخل المستشفى. وكان هناك ثلاثة جسور يستطيع الشخص أن يختار منها واحداً. على أحد الجسور تجد امرأة تبيع الكستناء المحمصة. انها توحي بالدفء وهي واقفة أمام الفحم المشتعل. الكستناء تظل دافئة في جيبك مدة طويلة.

كان المستشفى عتيقاً وجميلاً، وأنت تدخله خلال بوابة وتقطع ساحة ثم تخرج من بوابة في الجهة الأخرى. وغالباً ما يكون هناك بعض التوابيت عند بداية الساحة. وتلحق بالمستشفى العتيق هذا سرادق جديدة مبنية بالقرميد الأحمر. وهناك نلتقي كل مساء وكلنا كياسة ومتعة فيما كان يجري هناك. ثم نجلس في المكائن التي تؤدي بنا الى تغير كبير.

جاء الطبيب الى ماكنتي حيث اجلس وقال:
ـــ أي شيء كنت تفضل عمله قبل الحرب؟ هل كنت تمارس الرياضة؟
قلت: نعم، كرة القدم.
قال: حسناً. سيكون باستطاعتك أن تلعب كرة القدم ثانية وأحسن مما مضى.

لم تكن ركبتي لتنثني والساق مستقيمة من الركبة حتى الكاحل وبدون شظية. وقد اعدت الماكنة لثني الركبة وتحريكها كما يفعل في ركوب دراجة ذات ثلاث عجلات. ولكن الركبة لم تنثن بعد، بل وان الماكنة تميل جانباً عندما تصل الى القسم الواجب ثنيه.

قال الطبيب: « كل هذا سيمر. انت شاب محظوظ. ستلعب كرة القدم ثانية كبطل ». في الماكنة المجاورة كان هناك (ميجر) له يد صغيرة كأنها لطفل صغير. لقد غمز لي عندما بدأ الطبيب يمتحن يده، التي كانت بين ربطتين من جلد تغلفان الأصابع المتيبسة. كان يقول: « وأنا ايضاً سألعب كرة القدم، كابتن دكتور؟ ». كان لاعب سيف عظيم؛ وقبل الحرب كان أحسن لاعبي السيف في ايطاليا.

ذهب الطبيب الى دائرته في الغرفة الخلفية وجلب صورة فوتوغرافية ليد ذابلة صغيرة بحجم يد (الميجر) قبل ان تعالج الماكنة فيزداد حجمها. أمسك (الميجر) الصورة بيده السليمة ونظر اليها باهتمام وسأل: (جرح؟)

قال الدكتور: ضرر بسيط.
قال الميجر: « ملذ جداً، ملذ جداً ». ثم أعاد الصورة الى الطبيب.
ـــ عندك ثقة في الشفاء.
قال الميجر: لا.

كان هناك ثلاثة شبان في سني تقريباً يأتون كل يوم أيضاً. كان ثلاثتهم من ميلانو، وكان المفروض ان يصير احدهم محامياً، والآخر رساماً، والثالث جندياً. وعندما تنتهي من المعالجة بالمكائن في بعض الأحيان نذهب جميعاً الى مقهى (كوفا) الذي يجاور (سكالا). ولقد اخترنا ذلك المساء اقصر طريق

فمررنا بحي شعبي.كنا جماعة من أربعة أشخاص. وكنا مكروهين من قبل الناس لأننا رسميون. وعندما مررنا بدكان لبيع النبيذ هتف احدهم بسقوطنا.

كان هناك شخص آخر يصحبنا أحياناً فنصبح خمسة. كان يغطي وجهه بمنديل حريري أسود، لأنه بلا أنف وكان ينتظر أن يعاد بناء أنف له. لقد ارسلوه الى جبهة القتال بعد تخرجه من الأكاديمية العسكرية فجرح بعد ساعة من ذهابه لأول مرة الى الخطوط الأمامية. لقد استطاعوا ترميم وجهه ولكنهم لم يستطيعوا ان يعيدوا انفه كما كان فهو من نسل عائلة عريقة قديمة. لقد ذهب الى امريكا الجنوبية واشتغل في بنك. لكن ذلك كان منذ زمن طويل، ولم يعرف احد منا ما سيحدث له بعد. كل ما كنا نعرفه انه ستكون هناك حرب دائماً. ولكننا لن نذهب اليها بعد أبداً.

كان كل منا قد حصل على وسام، عدا الشاب ذو الضمادة الحريرية السوداء التي تغطي وجهه، فانه لم يتاح له أن يبقى مدة كافية الوجه الشديد الشحوب والذي كان مفروضاً أن يصير محامياً، فانه كان قد حصل على رتبة (ليتنانت) في ارديتي. كما وقد حصل على ثلاثة أوسمة من النوع الذي يحمله كل منا. لقد صاحب الموت مدة طويلة ولكن لم يصبه من الضرر الا القليل. كنا كلنا قد اصبنا بضرر بسيط، ولم يكن هناك، ما يريد بيننا ويجمعنا غير اننا نلتقي كل مساء في المستشفى.

كنا عند ذهابنا الى مقهى (كوفا) نمر في اعنف قسم من المدينة، نسير في الظلام، والأضواء والغناء تصدر من دكاكين بيع النبيذ وأحياناً تسير في الشارع لتجمع وتزاحم الرجال والنساء على الرصيف الذي لن تستطيع المرور عليه الا اذا حشرت نفسك بينهم وتدافعت بالمناكب. رغم كل ذلك كنا نشعر بانه لا بد وان شيئاً ما حدث لهؤلاء الناس بحيث أصبحوا يكرهوننا ولا يتفاهمون معنا. كنا كلنا نفهم مقهى (كوفا) حيث الثراء والدفء والانارة غير المبالغ فيها، والتي تزدحم بالضوضاء والدخان في ساعات معينة، وهناك دائماً بنات حول المناضد، والجرائد المصورة على رف في الحائط.

والبنات في هذا المقهى وطنيات جداً. وقد وجدت ان أكثر الناس تعلقاً بحب

الوطن في ايطاليا كن بنات المقهى واعتقد أنهن ما زلن كذلك.

كان رفاقي مهذبين جداً في البداية. وعندما سألوني عما فعلته لأحصل على الوسام. أريتهم الجرائد، والتي كانت قد كتبت بلغة جميلة ولكن كتب فيها ما معناه بالنص، ان النياشين قد اعطيت لي لأني أمريكي. ولم اتذكر الصفات التي من اجلها حصلت على الوسام. بعد ذلك تغير تصرف رفاقي الشبان نحوي بعض الشيء، رغم اني بقيت صديقهم وأقف معهم في وجه الآخرين غيرنا ممن يكرهوننا. كنت ديقاً لهم. لكني لم أعد واحداً منهم حقاً عندما قرؤا الجريدة، لأن الأمر كان مختلفاً معهم فهم لم يحصلوا على الوسام الا بعد أن تحملوا أشياء كثيرة جداً. صحيح انني جرحت لكنا كلنا كنا نعلم ان الاصابة بالجرح لا تعني غير ان حادثاً ما سببه او المصادفة وحدها. قط لم أكن خجلاً من النياشين، وكنت أحياناً بعد ساعة شرب الكوكتيل، اتخيل نفسي قد فعلت كل ما فعلوه هم ليحصلوا على اوسمتهم، لكني وأنا في طريقي الى البيت ليلا ماشياً خلال الشوارع المظلمة والريح الباردة. والدكاكين مغلقة كلها، محاولاً أن اكون قريباً من أضواء الشارع، أدرك اني لم أفعل شيئاً من ذاك، واني كنت أخاف أن أموت، بل واني عندما أعود الى فراشي في الليل وأنفرد مع نفسي، ينتابني الخوف من الموت وأتساءل كيف سيكون شعوري اذن لو عدت للجبهة ثانية. كان الثلاثة يحملون الأوسمة، كأنهم صقور الصيد، وأنا لم أكن صقراً، رغم اني قد أكون بدوت كصقر لأولئك الذين لم يصيدوا أبداً، لكن هم، الثلاثة، يعرفون جيداً وهكذا وجد التباعد بيننا. لكني والفتى الذي جرح أول يوم ذهب فيه للجبهة بقينا صديقين طيبين لأنه لم يعرف حتى الآن كيف عليه أن يتحول عني، لذلك فقد عومل مثلي. ولقد اعجبني. واعتقد أن سبب ذلك يعود الى أنه هو أيضاً ما كان له أن يكون صقراً.

أما (الميجر)، الذي كان لاعباً عظيماً، فهو لم يكن يؤمن بالشجاعة، ولقد قضى معي وقتاً كثيراً يصحح لغتي من الناحية النحوية ونحن جلوس عند المكائن. لقد أثنى على طريقتي في التكلم بالايطالية، وعلمني كيف انطق الايطالية كما يجب، وصرنا نتكلمها فيما بيننا بسهولة فائقة. وفي أحد الأيام

قلت له بأن الايطالية تبدو لي لغة سهلة لدرجة اني لا أجد متعة عظيمة فيها لأن كل شيء يسهل قوله فيها. قال (الميجر): (آه نعم، لماذا اذن لا تتقن النحو؟). وهكذا بدأ يمرنني على النحو، وسرعان ما صارت الايطالية لغة صعبة لدرجة اني صرت اخشى استعمالها في الكلام معه، الى أن يدخل النحو في رأسي تماماً.

كان (الميجر) غالباً ما يأتي الى المستشفى، حتى اني لا اذكر انه غاب يوماً، رغم اني واثق من انه لم يكن يؤمن بالمكائن. كان قد مر وقت لم يكن أي واحد منا يؤمن بالمكائن، وفي أحد الأيام قال (الميجر) ان كل ذلك هباء. كانت المكائن جديدة وكان المفروض أن تجرب علينا. انها لفكرة خرقاء، نظرية كغيرها » هكذا عبر الميجر عن رأيه فيها. لم أكن قد تعلمت النحو بعد، ولقد وصفني أنا كوصمة حمقاء مستحيلة. وما هو الا مخبول لأنه ازعج نفسه معي. كان هو رجلاً صغير الحجم وكان يجلس في كرسيه باستقامة ويده اليمنى مغروزة في الماكنة وينظر تماماً الى الأمام، الى الحائط بينما اربطة الضمادات تصعد وتنزل وأصابعه فيها.

لقد سألني مرة: « ماذا ستفعل بعد انتهاء الحرب، اذا كانت ستنتهي؟. تكلم دون ان تخطيء في النحو؟ ».

اجبته: (سأعود الى الولايات)

ــ (هل انت متزوج؟)

ــ (لا، لكني آمل أن أكون)

قال: (انك مخبول) وبدا غاضباً جداً (الرجل ــ يجب أن لا يتزوج).

ــ (لماذا سنيور ماكيورى؟)

ــ (لا تدعوني سنيور ماكيورى)

ــ (لماذا على الرجل أن لا يتزوج؟)

ــ (لأنه لا يستطيع الزواج لأنه لا يستطيع) قال ذلك بغضب (اذا كان سيفقد كل شيء، فليس هناك ما يدعو لأن يضع نفسه في موقف يخسر فيه كل شيء. على الانسان أن يجد أشياء لا يستطيع أن يفقدها).

لقد تكلم بغضب شديد. وبمرارة، وكان ينظر الى ما أمامه أثناء كلامه ذاك.

ــ (لكن لماذا بالتأكيد يفقد كل الأشياء).

قال الميجر: (سيفقدها). كان ينظر الى الحائط. ثم خفض نظره الى الماكنة ثم خلص يده الصغيرة من مشدها. وضرب بها بقسوة على فخذه.

(انه سيفقدها): كان تقريباً كمن يصيح. (لا تجادلني بعد!): ثم طلب المساعد الذي يحرك المكائن: (تعال واوقف هذا الشيء الغبي).

ثم نهض ودخل في غرفة المعالجة والتدليك وسمعته يسأل الطبيب فيما اذا كان يسمح له باستعمال التلفون. ثم أغلق الباب وراءه. ولما عاد كنت أنا جالساً عند ماكنة أخرى. كان متدثراً وعلى رأسه قبعة، وجاء مباشرة الى ماكنتي ووضع ذراعه على كتفي.

وقال: (أنا آسف جداً) وربت على كتفي بيده السليمة. (ما كان يجب أن أكون فظاً. ان زوجتي ماتت قبل لحظات. عليك أن تسامحني).

ــ (اوه أنا آسف جداً). لقد شعرت بالمرض من أجله... برثاء فظيع من أجله.

بقي واقفاً في مكانه وهو يعض شفته السفلى. قال: انه لشيء صعب جداً. لا استطيع ضبط نفسي).

ومرت نظرته عبري الى خارج النافذة. ثم بدأ يبكي. (قط، ليس بامكاني أن أضبط نفسي) قال ذلك بغصة. ثم بقي مسترسلاً في بكائه، ورأسه معتدل، ينظر الى لا شيء، حاملاً نفسه باستقامة وصلادة، والدموع على خديه وهو يعض شفتيه. مشى ماراً بجانب الماكنة ثم الى خارج الباب.

اخبرني الطبيب ان زوجة (الميجر)، التي كانت في بكرة شبابها والتي لم يتزوجها (الميجر) الا بعد أن خرج من الحرب نهائياً، ماتت بفقر الدم، لقد مرضت لأيام قليلة. لم يتوقع أحد أن تموت.

لم يأت الميجر للمستشفى الا بعد ثلاثة أيام. جاء في الساعة المعينة، مرتدياً شارة سوداء على ياقة بدلته.

كانت هناك صورة فوتوغرافية كبيرة باطار على الحائط، عندما عاد، تمثل أنواع الجروح قبل وبعد المعالجة بالمكائن. وأمام الماكنة التي استعملها (الميجر)

ثلاثة صور لأيد شبيهة بيده، تظهر الشفاء التام. لا أعرف من اين حصل الطبيب عليها. كنت كما أعلم دائماً اننا نحن أول من استعمل المكائن.

لم تكن الصور هذه بذات تأثير على (الميجر)، لأنه لم يكن لينظر الا الى خارج النافذة...

في قطار الى روما

جيمس. ت. فاريل

في قطار الى روما

جيمس. ت. فاريل

دخل القطار في محطة (نابلس) مزدحماً، وكان سيمضي الى (روما) في الساعة الثالثة والدقيقة الخامسة والخمسين، واذ توقف فقد احتشد الناس ليصعدوا اليه، وكنت اصحب ماري وهي صديقة لي تعرف التحدث بالايطالية، وكنا محظوظين ومن بين الأوائل الذين دخلوا عربة الدرجة الثانية.

كان على اليسار ممر ضيق، وعلى اليمين المقصورات وكل منها تتسع لثمانية ركاب. ولمحت ماري شخصين يغادران احدى المقصورات، فاندفعت داخلة فيها على الفور. وحين تبعتها في الدخول، اخبرها رجل رمادي الشعر بأن مقعداً واحداً شاغر، وأشار الى غلام صغير سمين في حوالي الثامنة من العمر وقال بالايطالية، ان والدة الغلام ستعود فوراً (وقد ترجمت لي ماري قوله، حيث لم أكن افهم سوى ثلاثين كلمة ايطالية تقريباً).

وجلست في المقعد الوحيد لأشغله، وكانت ماري على وشك أن تغادر المقصورة حين دخلت امرأة فدعتها للجلوس فجلست ماري أيضاً. كنت مرتبكاً، حيث انني لم أفهم ما قيل.

كان قد أصبح في المقصورة أربعة رجال بالاضافة اليّ وماري والغلام والمرأة التي خاطبت (ماري).

لم يقلع القطار فوراً، فانتظرت متوجساً محتضناً حقيبتي الصغيرة، خائفاً من أن اضطر الى الوقوف حين تعود والدة الغلام فأبقى واقفاً طوال الطريق الى

روما. كنت متعباً جداً فقد قمت صباح البارحة بنزهة طويلة في (كابري)، حيث كنت أبيت وذهبت الى (نابلس) في باخرة الساعة السادسة، وكان وقت القيلولة في (نابلس) وليس من غرف تحجز في الفندق. وتسكعت في الشوارع باحثاً عن غرفة لأقضي ليلتي فيها، وبعدها حين بدأ واضحاً انني لن احصل على غرفة، رحلت اسير وأسير لأرى (نابلس) والقيلولة والجموع وكذلك لأقضي الوقت حتى حين الموعد لألحق بقطار (روما) وكنت قد نمت في غرفة الانتظار، والآن، للمرة الثانية، أكون نعساناً جداً، بحيث أشعر بنفسي مخدراً وخاوياً.

وفي اللحظات التي كنت اتغلب فيها على نعاسي، كنت أمد بطرفي الى بقية المسافرين. كان الرجل الرمادي اللون يجلس قبالتي عند النافذة وبمحاذاته رجل قصير له مظهر شاب وفي بدلة رخيصة. ثم الغلام الصغير السمين، الذي كان اسمر الوجه مدوره وبعينين مثبتتين في تركيز صارم عجيب، وكان مرتدياً بصورة رشيقة كنزة حمراء خفيفة وسروالاً رمادياً. وكان الرجلان اللذان على جانبي شابين، وكانت المرأة شابة ولكنها في بداية سمنتها، وعلى وجهها انطباع مرهف جداً، نظرة تشي بالتعب والعمل، رأيتها على وجه كثير من النساء في (ايطاليا).

اخبرتني ماري بالانكليزية ـــ وكان الناس مشغولين باحاديثهم ـــ بأن هناك مقعدين بالفعل، وليس واحداً وقالت ان الرجل الرمادي الشعر كان قد كذب لأنه هو ووالدة الغلام ارادا لهذا الأخير مكاناً متسعاً، وان والدة الغلام هي المرأة التي في المقصورة. ولم تعجبني الحيلة، ولكنني تمددت براحة. سيصبح بامكاني الاحتفاظ بمقعدي، ومن المحتمل أن أنام اثناء السفرة.

كان هناك بعض الضجيج والحركة في القطار وعلى رصيف المحطة، واجتاز جوف القطار ناسك كالقزم، له لحية ويرتدي رداءً أحمر براقاً، وكان يتسوّل.

لقد كان يحمل محفظة كبيرة ليضع فيها النقود التي تعطى له وهو يعرج بشكل سيء، وقبل أن يصل القطار، كان قد قطع رصيف المحطة حاملاً حقيبة أمام الجميع وبشيء من الغطرسة، منتظراً الاحسان كأنما هو حق طبيعي له، ولقد أخذتني رؤيته الى خارج الزمن، كان ذلك شبيهاً بمراقبة ناسك متسول من العصور الوسطى، وكان آخرون يجتازون ممر العربة، وفي الخارج كان

هناك ضجيج وصخب أكثر مما في الداخل واطفأ أحد الرجال في عربتنا النور وأغلق الباب، وأخيراً بدأ القطار يتحرك.

كانت المقصورة حارة وكنت من التعب بحيث انني لم أكن متأكداً من النوم وكذلك كان من المحال أنه تجد وضعته مريحة. لم اكن استطيع ان اجلس باعتدال، ولا أن أرقد مضطجعاً، وكانت حولي حركات صغيرة قلقة ومستمرة، والغلام بالأخص كان قلقاً.

اغلقت عيني وحاولت النوم، وتمنيت لو ان القطار كان قد وصل الى (روما)، فكرت في بومبي، لقد قضيت هناك اليومين السابقين. وبالنسبة لي كانت انقاض مدينة بومبي تبعث شعوراً بالأسى والكآبة الآسرة. لقد ابتلعت المدينة ذات يوم حمم حمراء ملتهبة وكان الناس ماضين في حياتهم، ومرتبطين بأعمالهم وبأهوائهم ومسراتهم. لقد كانوا يفكرون بما ستأتي به الحياة التي تحيط بهم وكان الموت غير ذي أهمية، وبعيداً. وكانت هناك حشود في ساحة الملعب وعربات تذرع الشوارع الضيقة. لقد استلقوا على أرضيات قصورهم وسلموا أنفسهم للدعة والتوكل، وبعد ذلك الوقت اغرقت الحمم مدينتهم... كان قطاري يندفع مسرعاً.

فتحت عيني واغلقتهما في الظلام. ولكي ادفع نفسي للنوم، حاولت أن افكر بلعبة (االبسبول)، وبجميع اللاعبين الذين ظهروا في سلسلة الرياضة العالمية ممن استطيع تذكرهم. وفجأة انفتح باب المقصورة والتمع نور، فدفعني الى أن ارمش. كان قاطع التذاكر، وهو رجل ضئيل في معطف ويضع على رأسه قبعة. كان لكل شخص في المقصورة تذكرة مختلفة، ووجب على رجلين أن يبلغا سترتيهما الموضوعتين في مكان عال. وثقب قاطع التذاكر كل تذكرة. وتبودلت عدة كلمات. ولم يقل الغلام الصغير شيئاً، ولم ينظر الى قاطع التذاكر.

اطفأ قاطع التذاكر النور وأغلق باب المقصورة، حاولت للمرة الثانية أن أنام وشعرت ان في عنقي تشنجاً فحاولت ان اعثر على وضعية أكثر راحة. وفكرت بالاسلوب الذي يضرب به (تاي كوب) الكرة بمضربه، وأخيراً غلبني النوم. حينما استيقظت كان النور في المقصورة رمادياً ومزرقاً، وقد خرج اثنان

من الرجال فصار هناك متسع من المكان. وفي الخارج بدأ النهار في البيوت والحقول التي نجتازها.

كان الغلام يحادث الرجل الرمادي الشعر. ورحت أخمن موضوع حديثهما. كان الرجل الرمادي الشعر عطوفاً وحانياً، وقد ضحك هو ووالدا الغلام بكثرة مما يقوله هذا الذي كان يتكلم بسرعة كمن اعتاد على أن يستقطب الانتباه. وأثناء كلامه، كان غالباً ما يتلمس امه، فيحضنها بذراعيه، ويقبل خدها بشغف، وبعد أن يقبلها يفرك خده بخدها. كان يتكلم باستمرار، وقد لاحظت وجهه عدة مرات. كان خالياً من التعبير تقريباً وفي سحنته لم تكن هناك اية حركة أو أي تبدل عاطفي. ولم يكن ليستطلع ما حوله كثيراً، ولا ينظر الى الشخص الذي يخاطبه.

كان الضوء في الخارج يعم أكثر فأكثر. وعاد أحد الرجلين اللذين كانا قد غادرا المقصورة فجلس بجانبي. ثم دخل الثاني. وكان الغلام يثرثر. كان يتحدث عن امريكا، وهمني ما يقوله هو والآخرون. وانتصب بين المقاعد المتقابلة وأخذ يتكلم، وقد أدار عينيه نحو نوافذ القطار المتحرك. وكانت والدته ترمقه بمحبة، وبين الحين والآخر تربت عليه وتعانقه بحركات عذبة. بدأ لي ان الغلام قد افسد، اذ روعي أكثر من اللازم، تكلم وتكلم، وكان من الواضح بالنسبة لي — رغم اني لا اعرف الايطالية — انه يسيطر على الجميع. كانت كل العيون مثبتة عليه وهو يتحدث منفعلاً ويوالي التماس والدته، فيحضنها، ويقبلها، ويفرك خده بخدها ثانية.

كان واقفاً في مواجهتي يتكلم ونظرت اليه وابتسمت بود، فلم يتأثر وجهه، وكان ينظر الي وهو مستمر بالتكلم كأنني لم أكن هناك مبتسماً له. واستمر الآخرون الذين في المقصورة يستمعون اليه، ويضحكون ويبتسمون لما يقوله. واستمر يخاطب والديه، وكان بالأخص يقول دائما « ماما ».

وبدا لي أكثر فأكثر انه « صبي ماما » وقد دللوه الى حد الافساد. كان هذا المشهد باقياً بينما القطار يتدحرج نحو روما والنهار يستنير. جلس الغلام بجانبي وانتصب وهو يحدث الرجل الرمادي الشعر. ولمست يده يدي ثم تركها راقدة

على ساقي. وكان لا يزال يتكلم وبشيء من الاسراع والعصبية، لكنه لا يميزني رغم انه يلمسني. رفع الرجل الرمادي الشعر يد الغلام عن ساقي وحاولت أن أؤكد له بأن الغلام لم يكن يزعجني حقاً. التمس الغلام ذراعي والدته مرة اخرى، وبدلت مقعدها فصارت جالسة بالعكس، وقبلها بصخب وقال:
ـ (ماما)

وأخرج الرجل الذي بجانبه من محفظته صورة قديسة طاهرة وناولها للغلام. وتبودل حديث فعرفت انه يدور حول تلك الصورة. وحملها الغلام في يده وأخذ يتحدث. وفكرت بأنه كان يقرأ الصلاة أو الدعاء المطبوع على أحد وجهي البطاقة، وحين انتهى من ذلك، جلس. وأخرج محفظة صغيرة حمراء وتركها هي والصورة ترقدان على فخذه السمينة. ثم أخذت والدته الصورة ووضعتها في المحفظة بعناية، واعطتها له فوضعها في جيبه، واحتضنها وقبلها من جديد.

وشاركتهم ماري في الحديث، الا انها لم تترجم لي. ورحت أرقبهم واحاول ان اقتنص معنى الكلمات. وقال الغلام شيئاً آخر عن امريكا، وعاد والده الى المقصورة، وأخذ يراقب ابنه بعطف.

ثم صرنا في روما. واسرع المسافرون الآخرون بترك المقصورة قبلنا. وتناول الأب يد الغلام وهم يغادرون المقصورة.

نزلنا من القطار في صباح مشمس في روما. كان الغلام الصغير السمين ذو الكنزة الحمراء أمامنا يمشي بين والديه. وكان كل منهما يمسك باحدى يديه، وكل منهما يحمل حقيبة باليد الأخرى.

وقالت ماري:
ـ (ان الغلام الصغير اعمى)
فصعقتني الدهشة.

ثم اخبرتني بما علمته: لقد اصبح الغلام فجأة قبل سنة أعمى، وأن والديه الآن في طريقهما الى ميلان، ليأخذاه الى طبيب اخصائي.

استفسرت من ماري عما قالوه فيما يخص امريكا فأخبرتني بأن أحد الرجال

سأل الغلام الصغير عما سيفعله اذا ذهب الى هناك، وقد أجاب بانه سيشتغل ويبعث الى والدته بعشرين دولاراً في الأسبوع.

رأيت نور الشمس اللامع فوق روما عند الصباح، ورأيت الغلام، وهو بين والديه، يختفي بين الجموع التي ازدحم بها رصيف المحطة.

الباخرة سراتوف

ايفان بونين.



الباخرة سراتوف

ايفان بونين

كان سيل خفيف من مطر نيسان يطرق النوافذ في الظلام، والحارس المجدور ينتظر وهو يحتسي الشاي في المطبخ على ضوء مصباح من الصفيح. ونظر هذا الى ساعة الحائط التى دقت، وانتصب واقفاً فسار، محاولاً أن يمنع جزمتيه الجديدتين من الأزيز، ودخل في المخدع واقترب من الأريكة العريضة:

ـ (انها الساعة العاشرة، يا صاحب السعادة...)

وفتح عينيه بانزعاج:

ـ (ماذا، الساعة العاشرة، هذا غير ممكن...)

كانت النافذتان مفتوحتين على الحدائق المحاذية للشارع، والهواء يدخل منهما معطراً برطوبة الربيع المنعشة ورائحة اشجار الحور. لقد ميز هذه الروائح بالحساسية المرهفة التي يخلفها نوم الشباب العميق، فألقى بساقيه من حافة الأريكة العريضة بحيوية:

ـ (أوقد المصباح وأبعث حالاً في طلب عربة. هيء سائقاً يملك حصاناً نشيطاً...)

إرتدى ثيابه واغتسل، ورش وجهه بالماء البارد، وغمر نفسه بعطر الكولونيا ثم مشط شعره القصير المجعد وهو ينظر في المرآة. كان وجهه قد عاد منتعشاً وعيناه قد صارتا تبرقان. كان قد تناول العشاء في حفلة كبيرة للضباط بدأت من الساعة الواحدة وحتى السادسة، وحينما عاد وقع نائماً بتلك الطريقة المفاجئة

التي تنام بها الناس إثر ساعات عديدة من الشراب والتدخين، والضحك والحديث المتواصل. لكنه الآن في شعور رائع، لقد ناوله الحارس سيفه، وقبعته ومعطفاً صيفياً خفيفاً، وفتح الباب المؤدي الى الخارج على مصراعيه؛ فقفز هو الى جوف العربة بخفة وهتف بصوت أجش:

ــ (تحرك بشيء من السرعة لأعطيك روبلاً إضافياً!)

كان نور المصباح المتميز يضيء أوراق الأشجار الطرية الكثيفة، وكان شذى أشجار الحور الندية في الوقت نفسه منعشاً وعاطراً، والحصان يخب بنشاط، قاذفاً بشرارات حمراء من تحت حوافره. بدا كل شيء جميلاً، الأوراق ومصابيح الشارع، والموعد الذي يقترب، ومذاق السيجارة التي كان يدخنها في الطريق، امتزج الكل فاصبح شيئاً واحداً، وهو الاحساس السعيد بأنك مستعد لكي تفعل أي شيء. أكان ذلك نتيجة (الفودكا)، والشعور بالنعمة، والقهوة التركية؟ سخافة، لقد كان ذلك ببساطة بسبب الربيع، وكان كل شيء عجيباً...!

فتحت له الباب خادمة صغيرة ذات مظهر سيء جداً، تتعثر في حذاء رفيع ذي كعب عال. خلع سترته بسرعة وفك حزام سيفه، وألقى بقبعته الى نصب المرآة وهو يرتب شعره قليلاً، ثم دخل ومهما زاه يرنّان الى غرفة صغيرة، بدت ضيقة بسبب ما حشر فيها من الأثاث الثقيل... ودخلت هي أيضاً في الحال، متأرجحة على حذاء ذي الكعب العالي بدون خلفية، وقدماها العاريتان اللتان يبدو منهما كعباها الورديان طويلتان صفصافيتان كحيتين بلون الرماد، وسترتها المنزلية الضيقة تنفتح ردناها حتى الكتفين. وكانت عيناها اللتان على شيء من الحور طويلتين أيضاً، وبين أصابعها الشاحبة كانت تمسك بمبسم طويل من الكهرمان فيه سيجارة متقدة.

ضرب كعبيه احدهما بالآخر، وهو يقبل يدها:

ــ (سامحيني، بحق الأله. إن تأخري لم يكن بسبب غلطة مني...)

فنظرت من أعلى قامتها الى اللمعان الرطب في شعره القصير المجعد، والى عينيه اللامعتين، ولاحظت أن رائحة الكحول تفوح من انفاسه:

ــ (ان الخمرة لسبب قديم مألوف...)

وجلست على المقعد الحريري، واضعة يدها اليسرى على مرفقها الأيمن، حاملة سيجارتها عالياً في الهواء، ووضعت ساقيها واحدة فوق الأخرى فانفتح بذلك شق سترتها الجانبي فوق الركبة تماماً. جلس ازاءها في أريكة عريضة مغطاة بالحرير، وهو يأخذ من جيب سرواله علبة سجائر.

ــ (انك تفهمين كيف تحدث هذه الأشياء...)

ــ (افهم ... افهم ...)

أشعل سيجارة بحركة سريعة مثيرة، واطفأ عود الثقاب المشتعل ملقياً به في المنفضة التي على المنضدة الصغيرة القريبة، ومال بجلسته بمزيد من الراحة وأخذ ينظر باعجابه المعتاد الطليق الى ركبتها العارية الظاهرة من شق سترتها:

ــ (حسناً، لا تهتمي بذلك، إن كنتِ لا تريدين السماح فلا حاجة بكِ إليه... ما هو برنامجك لهذه الليلة؟ أتريدين الذهاب الى « حديقة التجار »؟ إنهم يعرضون هناك نوعاً من « الليالي اليابانية » كما تعلمين، مع فوانيس صغيرة، وفتيات (جيشا) على المسرح، « لقد نلت الجائزة الاولى في مسابقة للجمال »...

هزت رأسها:

ــ (لا برامج بالنسبة لي. سأبقى في البيت)

ــ (كما تشائين تلك ليست فكرة رديئة، أيضاً)

فحركت عينيها في ارجاء الغرفة:

ــ (يا عزيزي، هذا هو لقاؤنا الأخير)

وأبدى دهشة شبيهة بدهشة من يتسلى:

ــ (كيف يكون الأخير؟)

ــ (انه يكون)

فارتعشت عيناه بمزيد من المرح رغم ذلك:

ــ (اعذريني، من فضلك، ولكن هذا طريف مسلّي!)

ــ (انه لا يسليني على الاطلاق)

ــ (حسناً جداً، ولكن على أية حال سيكون مثيراً أن أعرف « ما الذي يعنيه ذلك الحلم؟ » كما يقول عريفنا)

ـ (ان ما يقوله عرفاؤك لا يهمني اطلاقاً. والحق انني لا أدري لماذا انت مرح هكذا)
ـ (انني مرح كما أكون دوماً حين أراك...)
ـ (ذلك جميل جداً ولكنه هذه المرة غير مناسب على الأطلاق)
ـ (ولكن، اللعنة على كل شيء، انني لا افهم شيئاً! ماذا حدث؟)
ـ (حدث شيء كان ينبغي ان اخبرك به قبل وقت طويل. انني عائدة اليه. لقد كان انفصالنا خطأ).
ـ (يا الهي! هل انتِ جادة؟)
ـ (كل الجد. لقد كنت مذنبة بصورة مجرمة، ولكنه مستعد لأن يصفح عني وينسى كل شيء)
ـ (يا له .. يا له من كرم!)
ـ (لا تتصرف كمهرج. لقد رأيته ثانية منذ مدة...)
ـ تقصدين أن تقولي، انك دون أن تخبريني، مستمرة في...)
ـ (مستمرة في ماذا؟ اني افهم، ولكن لا تهتم بذلك، لقد قابلته).
ـ وبالطبع دون أن اخبرك، فلم أكن راغبة في اقلاقك ـ ففهمت اني لم أكف مطلقاً عن حبه)

فدحرج عينيه الى أعلى وهو يعض مبسم سيجارته:
ـ (تقصدين عن حب أمواله؟)
ـ (انه ليس اكثر منك ثراءاً. ثم ماذا تعني أموالك بالنسبة لي. لو اردت لأمكنني...)
ـ (اعذريني، ان الساقطات فقط تتكلمن هكذا.)
ـ وماذا أنا، إن لم أكن ساقطة؟ هل أنا أعيش من نقودي الخاصة، وليس من نقودك؟)

فدمدم بزمجرة ضابط:
ـ (النقود لا تعني شيئاً في الحب)
ـ (ولكن ماذا في ذلك، اذا كنت احبه؟)

ـ (وهكذا فأنا، كما يبدو، لم أكن الا لعبة مؤقتة، وتسلية في أوقات الضجر، وواحداً من أكثر المنفقين عليك فائدة؟)
ـ (انت تعرف بصورة جيدة جداً بأن ليست هناك مسألة لعب أو تسلية. حسناً نعم، انني امرأة ينفقون علي، ولكن من الدناءة أن تذكرني بذلك)
ـ (لا تتثني كثيراً هكذا! حاولي اختيار تعابيرك بعناية، كما يقول الفرنسيون!)
ـ (وانا ايضاً انصحك بأن تلتصق بهذه المقولة. وبكلمة...)

انتصب واقفاً، وقد غمرته دفقة اخرى من ذلك الاستعداد لأن يفعل أي شيء، ذلك الاحساس الذي سيطر عليه وهو يندفع بالعربة هنالك، وسار في الغرفة جامعاً افكاره، وهو غير قادر على أن يستوعب ذلك الوضع غير المتوقع الذي حطم بصورة فجائية جميع الآمال السارة لتلك الأمسية، ورفس بقدمية دمية صفراء الشعر في ثوب أحمر كانت راقدة على البساط، وجلس في الأريكة العريضة ثانية، ناظراً اليها في استفزاز:

ـ (إني اسألك مرة اخرى: هل انت تمزحين لا غير؟)

فسقط جفناها وقامت بحركة سلبية من سيجارتها، التي كانت قد انطفأت منذ وقت طويل.

وتأملها لحظة، ونفخ دخان سيجارته، وهو يعض المبسم ثانية، وقال متوقفاً بين الكلمات:
ـ (حسناً، وهكذا انت تعتقدين حقاً بأنني سأتنازل له بهذه الصورة عن ذراعيك هاتين، وعن ساقيك، بحيث انه سيقبل ركبتك التي لم اقبلها أنا سوى البارحة؟)

رفعت أهدابها:
ـ (بالتأكيد انني لست مادة، يا عزيزي، بامكان المرء أن يتركها أو يحتفظ بها. وأي حق لك...)

فوضع سيجارته في المنفضة بسرعة، ومال الى جانب وسحب من جيبه الخلفي مسدساً (من نوع براونتك) ناعماً، صغيراً، لكنه ثقيل، وأخذ يحركه في كفه.

ـــ (ها هو حقي)

نظرت اليه بدلال وضحكت في تعب:

ـــ (انني لست عاشقة ميلودراما)

ورفعت صوتها، فنادت بنغمة عادية:

ـــ (صونيا، سلمي لبافل سرجيفتش معطفه)

ـــ (ماذا؟)

ـــ (لا شيء. انك مخمور، فاذهب)

ـــ (أتلك كلمتك الأخيرة؟)

ـــ (هي كذلك)

ونهضت وهي تواري الشق الذي في ثوبها. وذهب هو اليها في عزم بهيج:

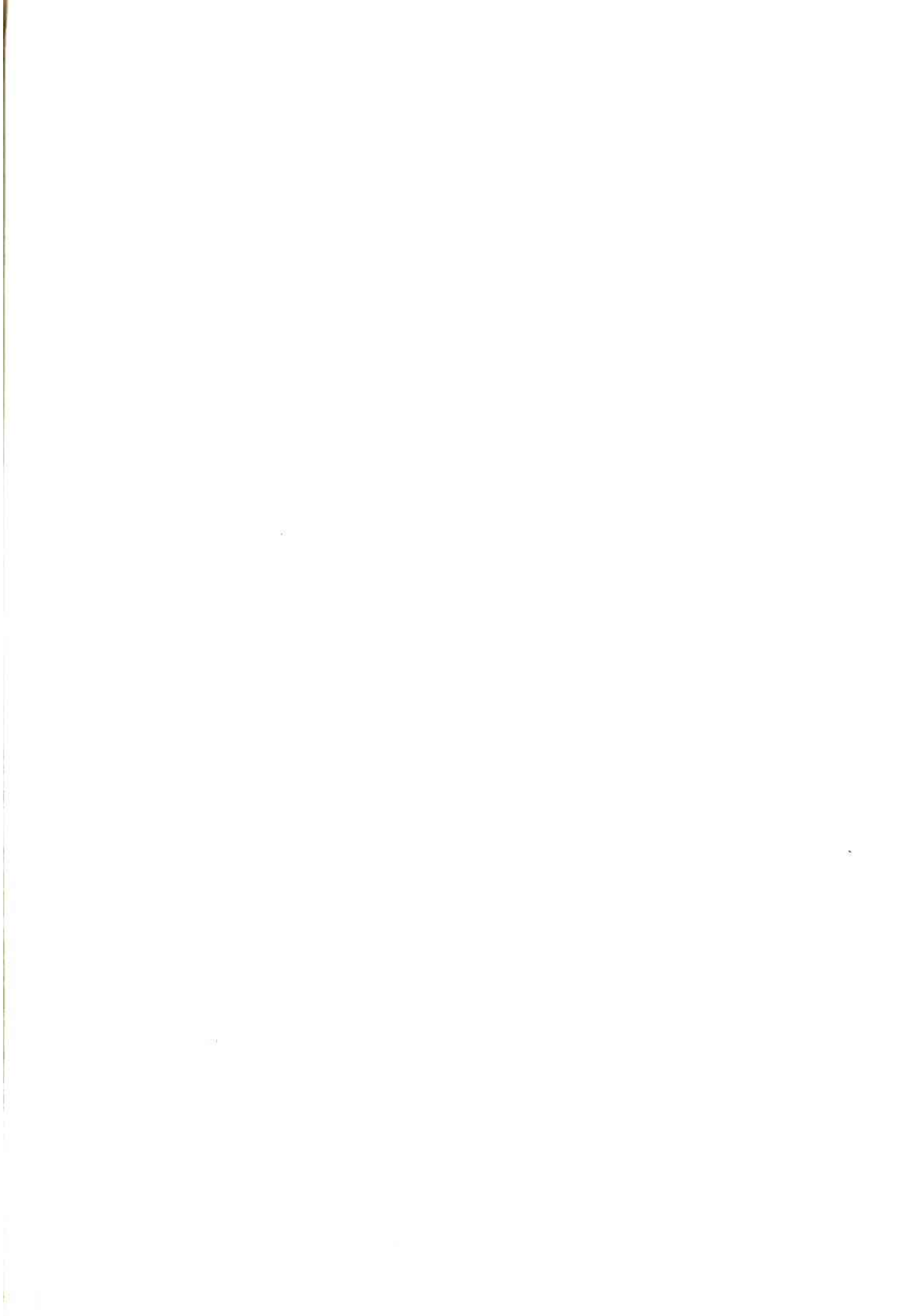
ـــ (الأفضل ان تتأكدي من انها ليست الأخيرة جداً!)

ـــ (ايها الممثل المخمور!)

قالت ذلك باحتقار، وتحركت سائرة نحو الباب وهي ترتب الشعر الذي في قفا رأسها بأصابعها الطويلة. وأمسك هو بها من ذراعها العارية بقوة شديدة دفعتها الى أن تنحني، فاستدارت اليه بعينين بدتا أكثر حولا من ذي قبل، وحاولت أن تضربه. لكنه تحرك جانباً برشاقة وضغط الزناد وعلى فمه ابتسامة مريرة.

في الشهر الأخير من تلك السنة كانت الباخرة (سراتوف) من الأسطول المتطوع تبحر في المحيط الهندي الى (فلاديفوستوك). وتحت سقف عطن من الخرق موضوع فوق السطيحة الأمامية في الحرارة الجامدة للنهار المعتم المليء بالبخار، وتحت انعكاسات البحر الشفافة كان المجرمون وهم عراة حتى الوسط يجلسون أو يرقدون على طول سطح الباخرة برؤوس مخيفة نصف حليقة، وحول ارجلهم العارية سراويل من الخيش الأبيض وقيود من حديد. وكان هو، مثل الآخرين كلهم، عارياً حتى وسطه، وكان جسمه النحيل مدبوغ الجلد من اثر التعرض للجو، والجزء المجرود تماماً من شعر رأسه قد أمسى داكناً أيضاً، واخشوشن خداه النحيلان غير الحليقين بشعر اسود جامد، وقد تألقت عيناه

من أثر الحمى. كان وهو مائل على الحاجز يحدق بثبات في المياه القاتمة الزرقاء التي تحته، وهي تضرب جوانب الباخرة العالية، ومن حين لآخر كان يبصق في أعماق البحر.



تصغير حساب

جيمس كولد كوزنس

تصفية الحساب

جيمس كَولد كوزنس

كان الحانوت ينخفض بثلاثة درجات من سلم، عند بداية بابه الذي في الشارع، وهو ضيق بين حائطين مليئين بالكتب، يمتد الى ستين أو سبعين قدماً حتى مؤخرته حيث يوجد مكان ضيق أيضاً ومقفل اتخذ كمكتب صغير حيث يجلس هناك رجل كبير الحجم شاحب تحت ضوء مصباح مظلل.

لقد سمع الباب يفتح، ونظر للحظة في ذلك الاتجاه، وأمعن النظر محدقاً من خلال نظاراته. لم ير غير رجل لطيف نحيف منتصب القامة بشارب صغير قصير أبيض، وقد وقف بتردد أمام المنضدة التي وضعت عليها لوحة كتب فيها (أي كتاب بنصف ثمنه)

عاد الى النسخة الملفوفة من مجلة دينية اسبوعية كانت أمامه على المنضدة. نظر الى حقل الوفيات مرة اخرى، سحب دفتر ملاحظات صغير وسجل ملاحظة ولما انجز ذلك رفع نظره ثانية. رأى الرجل ذا الشارب الأبيض قد قطع كل المسافة في المحل حتى وصل اليه. أزاح الصحف والأوراق جانباً وسأل:

ــ نعم يا سيدي؟ ماذا استطيع أن افعل من أجلك؟

حدق فيه الرجل ذو الشارب الأبيض بحدة وقال:

ــ هل أنا اتكلم مع صاحب الحانوت السيد جوريث؟

ــ نعم يا سيدي: انك تفعل ذلك.

ــ تماماً. اسمي اينغولز ــ الكولونيل إينغولز

ـــ أنا مسرور بمقابلتك يا كولونيل. ماذا باستطاعتي...
ـــ ارى ان الاسم لا يعني شيئاً بالنسبة لك؟
خلع السيد جوريث نظاراته، ونظر الى الرجل متأملاً وبنظرة ثاقبة ثم قال:
ـــ لا يا سيدي. اينغولز؟ لا اعرف احداً بذلك الاسم.

دفع الكولونيل اينغولز عصاه تحت ذراعيه واخرج مظروفاً من جيبه الداخلي. استخرج ورقة، فتحها، وقذفها على المنضدة قائلاً:
ـــ ربما... تنعش هذه ذاكرتك.
امسك السيد جوريث بانفه للحظة، نظر بقسوة الى الكولونيل، واعاد نظاراته الى مكانها وقال:
ـــ آه، قائمة بالحساب. أرجو المعذرة. أنا أقوم بمعظم عملي بواسطة البريد مع أناس لم التق بهم قط شخصياً. الدكتور غودفري اينغولز المبجل الموقر، مصحة القديس جون. آه، نعم، نعم...

ـــ المرحوم الدكتور اينغولز كان أخي. ومن الواضح ان قائمة الحساب هذه نتيجة خطأ. انه ما كان أبداً يمكن ان يطلب أو يستلم، أو يرغب في قراءة أي كتاب من هذه المؤلفات، وطبيعي، لم نجد أي أثر لمثل هذه المجلدات بين ما تركه من ممتلكات شخصية منقولة.

ـــ م مم، نعم فهمت.
قرأ مفردات القائمة، سعل، وكأنما في حرج:
ـــ فهمت، والآن، فلا تنظر في سجلاتي (وتناول بحركة بطيئة ملفاً واسعاً بالياً من الرف الذي أمامه) ئي... إينغولز. آه. الآن...
قال الكولونيل:
ـــ لا ضرورة الى ذلك. انها بالطبع غلطة، وغريبة كما تبدو لي. أنصحك بقوة أن تكون أكثر حذراً. اذا اخترت ان تغش نفسك وتختلس عند بيع اعمال من ذلك النوع، مبيعات مزيفة، فتلك مهنتك. لكن...

هز السيد جوريث رأسه عدة مرات، ثم اعتدل في جلسته:
ـــ حسناً يا كولونيل، ما دام ذلك رأيك. أنا لا احكم على اذواق زبائني. الآن،

في هذه القضية يبدو أن هناك بالتأكيد طلباً للكتب من المصدر الذي اشرت اليه... وأنا نفذت الطلب في الخامس عشر من مايس المفروض ان الكتب قد وصلت.. ماذا حل بها، ليس من شأني، لكن وانك قد الصقت التهمة بي فاني ممكن أن أشير بان ادباً كذلك على الأرجح يحتفظ به في مكان خاص ويقرأ على انفراد. ارسلت كشف حساب لثمانية شهور متعاقبة. لم استلم أي مبلغ. أنا كنت غير مدرك بأن الزبون كان، كما قلت، فقيداً. لذلك أشرت الى اني سأتخذ الاجراءات القانونية. أنا آسف جداً لأني...

قال الكولونيل بأعلى صوت ممكن:
ـ ايها السفيه الباعث على الألم. هل تعني حقاً بصورة قاطعة بأنك باق على تأكيدك بأن الدكتور اينغولز قد اشترى تلك الكتب؟ دعني أقول لك...

قال السيد جورث:
ـ يا سيدي العزيز، لحظة، اذا سمحت! هل انت في موقف أن تكون واثقاً من نفسك؟ أنا لا أقول شيئاً عن المشتري. أنا لا اؤكد أي شيء، عدا كوني اجهز بضائع، يدفع لي مقابلها. أنا رجل فقير الحال. عندما لا يسدد لي الناس الحساب، فماذا باستطاعتي سوى أن...

ـ لماذا، ايها السيء السمعة...
رفع السيد جوريث يده محتجاً:
ـ ارجوك. ارجوك. اعتقد يا كولونيل بأنك تتصرف تصرفاً ظالماً وغير دقيق. هذا الحساب قد استمر لمدة طويلة دونما تسديد. أنا لم أتخذ أي اجراء. انا مدرك جيداً للكدر الذي تسببه لكثير من الزبائن معرفة الناس بقائمة الكتب التي من هذا النوع. الظروف ليست فريدة من نوعها يا سيدي العزيز، انك لو اطلعت على قائمة باسماء زبائني التى احتفظ بها سراً لأدهشتك دون شك.

قال الكولونيل اينغولز بحذر:
ـ هلا أريتني الطلب الأصلي لأخي.
قال السيد جوريث:
ـ آه (وزم شفتيه) هذا غير لطيف منك يا كولونيل. انك ترى على وجه التأكيد

بأنني لا يمكن أن احتفظ به، فأنا لن احتفظ في اضباراتي بأي شيء يمكن أن يسبب المتاعب. أنا احتفظ بنسخة الكاربون من المستند والتي هي كافية من الناحية القانونية، في هذه الظروف على ما اعتقد. انك تدرك موقفي.

قال الكولونيل:

ـــ بوضوح. انه موقف شخص مخادع قذر، وغد بذيء اللسان، وسأرضي نفسي بضربك.

اخرج العصا من تحت ذراعه، بينما انسل السيد جوريث من كرسيه واختطف الهاتف من على المنضدة، رافساً احد الكراسي ليغلق الطريق على الكولونيل.

قال في الهاتف:

ـــ البدالة، أريد شرطياً.

وفتح جاروراً وأخرج منه مسدساً.

قال وظهره الى الحائط:

ـــ والآن، يا سيدي الطيب، سنرى قريباً... لقد احتملت الكثير من عسفك. لكن هناك حدوداً، لقد فهمت الى حد ما استدلالاتك، ولو أن هذا لا يجعل سلوكك معذوراً. اذا اخترت ان تخرج من هنا فوراً وارسلت صكاً بالمبلغ المستحق، فاننا لن نقول شيئاً بعد. أما اذا فضلت ان تنتظر وصول الشرطي...

شد الكولونيل اينغولز بالعصا بيده وقال:

ـــ اعتقد اني سأنتظر الشرطي (وبرباطة جأش مدهشة أضاف) انك كنت تعتقد بانك ستدهشني بقائمة الأسماء السرية، وبدون شك هنا اناس آخرون علي ان آخذهم بنظر الاعتبار بالاضافة الى أخي (وانقضت العصا التي بيده فجأة بحيوية وقسوة ضاربة السيد جوريث على رسغه. طار المسدس وسقط أرضاً محدثاً قرقعة، ورفسه الكولونيل الى الخلف) انها ليست من نوع الأشياء التي يرغب اقرباء رجل دين ان يعرفها الناس، اليس كذلك؟ انك عندما تقرأ عن وفاة احدهم، ما الذي يمنعك من ارسال قائمة بالحساب؟ على الأغلب، انهم مضطرون للدفع والسكوت. انه مخطط بالغ العبقرية، يا سيدي.

قبض السيد جوريث على رسغه باجفال:

ـ أنا عاجز عن فهم هذا الهراء. كيف تجرؤ...

قال الكولونيل اينغولز:

ـ حقاً؟ في الحالة الاعتيادية كان ممكناً أنا نفسي أن أكون عاجزاً، يا سيد، لكن في هذه القضية اعتقد انك وضعت قدمك في المصيدة، يا سيد، ان ما حدث هو اني متأكد بأن أخي المرحوم لم يطلب أي كتب منك، وبأنه لم يحتفظ بها في أي مكان خاص ولا يقرأها على انفراد. كان الدكتور اينغولز لمدة خمسة عشر عاماً منذ وفاته ـ رغم ان ذلك لم يذكر في الخبر الموجز عن نعيه ـ سيء الحظ لأنه ضرير (اعمى) بصورة كلية. وها هو... هناك، يا سيد، الشرطي الذي طلبت حضوره... قد حضر...

كتب للمؤلف

رجلان على السلالم (رواية)

الزائر الليلي (قصص)

شوارع زرقاء (قصص)

